

الأشجار والنباتات عند الصابئة المندائيين

هناك الكثير من أسماء الأشجار والنباتات التي تتخصص بها اللهجات العربية العراقية المختلفة دون اللهجات في الدول العربية الأخرى، وتعود جذورها إلى اللغات الرافدينية القديمة. فإلى جانب اللغة الأكديّة التي يمكن اعتبارها أصل اللغات السامية قاطبة دون أدنى مبالغة، هناك اللغات الآرامية المختلفة التي احتفظ بها السكان العراقيون القدماء حتى بعد دخول اللغة العربية مع دخول الإسلام إلى هذه البقعة من الشرق الأوسط. ومن المعروف أن اللغة العربية واجهت صعوبة في إزاحة اللغات القديمة رغم قربتها لها. فنقرأ في كتب التراث أن سكان العراق، وخاصة في الجنوب، ظلوا يتحدثون "النبطية" بعد قرون من الحكم الإسلامي، والنبطية هي اصطلاح استعمله الكتاب العرب للدلالة على آراميات جنوب العراق. واللغة الآرامية وفروعها الرافدينية (السريانية والمندائية والتلمودية) من بين اللغات التي أثرت في اللهجات العراقية، إلى جانب لغات أخرى مثل الفارسية والتركية والكردية وغيرها.

في البداية نشير إلى أن كلمة الشجرة في اللغة الآرامية المندائية (وفي بعض اللغات الآرامية الأخرى مثل التلمودية) هي ألانا أو إلانا، وهي كلمة جميلة الموسيقى. ويقال في المندائية كِنْتاد - لاني، أي حديقة أو بستان الأشجار، بالجمع، وهي جنة الأشجار حرفياً، فكلمة جنة هي كلمة سامية مشتركة تعني الحديقة أو البستان في الأصل ثم غدت تستعمل في اللغة العربية بمعنى آخر كما هو معروف كنفيس لجهنم أو النار، وأصلها أكدي مثل غالبية الكلمات وهو كِنَتَو. ومن الواجب ذكر التسمية الثانية للجنة، الفردوس، وهي الأخرى بابلية أكديّة الأصل، وتلفظ بِرَدِيسو (أو فَرَدِيسو)، والتسمية الأوروبية paradise أقرب صوتياً إلى الأكديّة من العربية، وهي في المندائية بِرَدِيسا. وما دام الحديث يدور حول الأكديّة وتأثيرها على اللغات السامية الأخرى، لا نملك سوى أن نشير إلى كلمة قد تكون بعيدة عن موضوعنا، ألا وهي الكباب، هذه الأكلة العراقية اللذيذة، فمن أين جاءت؟ أصل الكلمة أكدي، من الفعل ك ب ب، أي حرق أو شوى، وهي في الأكديّة كَبَابو.

وفيما يتعلق بالأشجار، نشير إلى أن الثمار التي تدرّها الأشجار تسمى بالمندائية پيراء، وأصل الكلمة أكدي كذلك، هو پيرئو (ما يقابل فرعو) pir'u وتعني فرع، وبرعم، ومنها أخذتها باقي اللغات السامية، فأصبحت في العبرية پيرو (ثمر) واشتقت منها كلمات فراء، وبرعم، وفرع في العربية (والفرو أي الفراء هو "تمر" الحيوان كذلك!).

وما نستعمله اليوم من أسماء الأشجار والفواكه في العراق، بعضه عربي، والآخر مستعار. ومن بين الأسماء المستعارة من اللغات القديمة هناك الآس أو الياس (آسا)، هذه الشجيرة الأليفة الجميلة زكية الرائحة، والتي تحتل موقعاً خاصاً في الديانة الصابئية المندائية، حيث يحاك من أغصانها خواتم

وإكالييل تستعمل في الطقوس الدينية المندائية. لكن كلمة آسا تعني كذلك الطبيب أو المعالج، ولهذا جذوره البابلية المعروفة. ونذكر أن بعض العلماء يعتقدون أن معنى كلمة الأسينيين (أصحاب مخطوطات قمران الشهيرة) يعود إلى هذا الجذر، فهم المعالجون الذين يشفون الروح. وهناك شجرة الدفلى، التي تسمى بالمندائية دِفلًا، والألف المقصورة الأخيرة هي من آثار علامات اللغات الآرامية وليس من الضروري أن تعني التأنيث. وكلمة النومي (الليمون) في المندائية نوما، نيمويي، ولا يستعمل هذه الكلمة سوى العراقيين. واشتقت كلمة السلي (الشوك) من سلوا أو سلوا المندائية الآرامية. ويبدو أن شجر الغرب غير المثمر يعود إلى جذور رافدينية قديمة، فهو أرباتو في الأكديّة، وأربا بالمندائية.

ولنأخذ كتاب ديوان نهروا (ديوان الأنهر)، أحد الكتب الدينية المندائية والذي ترجمه البروفيسور كورت رودولف إلى الألمانية وصدر في برلين عام 1982، نجد فيه إلى جانب وصف الأنهر والجدول مع رسومها، وصفاً للأشجار (المقدسة؟) عند المندائيين ورسومها. وقد رسمت الأشجار (والنباتات) وكتب أسماها إلى جانب الرسم، وغالباً ما تكون العبارة "هازن إلانا د-مشمش هو" مثلاً، أي هذا شجر المشمش. والنباتات المذكورة في الديوان هي زيتا (الزيتون)، سفرگلا (السفرجل)، ويترجمها رودولف بشجرة الحيوة (Quitte)، نارنز (البرتقال أو النارج، ويترجمها رودولف على برتقال)، ترُنْگا (طرنج، ويترجمها بصيغة ليمون)، مروا (ترجمها Meiranbaum وهي الميرمية أي البستنج (Origanum maru)، سَروا (شجر السرو)، صنوبر، شِگدا (شجر اللوز)، قينا هليا (قصب السكر أو القصب الحلو)، بلودا (البلوط)، قشمش (شجيرة الكشمش)، هَنزورا (التفاح (Mespilus germanica؟)، مشمش، خوفا، سمبلي (حبوب، قمح)، شُمبِلتا (سنبلتة)، ثم يختتم الديوان رسوم الأشجار بشجرة الزيتون مرة ثانية لقدسيته على ما يبدو. وتصنع عصا رجال الدين المندائيين من خشب الزيتون، وتسمى مرْگنا.

والحديث عن أشجار الحمضيات ضروري في هذا المجال. فهناك الكثير من الأنواع غير معروفة خارج العراق، أو نادرة، مثل الطرنج، الأطرنج وثمرتها سمكة القشر كانت تستعمل لصنع المرببات. وفي المندائية نجد كلمات إترونغ، ترونغا، طرنغا، لكن القاموس المندائي (من وضع الليدي درور والعالم ماتسوخ) يشير إلى أنها مشتقة من أترنج، تُرنج الفارسية. وتستعمل كلمة ترونغا في المندائية للدلالة على الحمضيات عموماً. ثم هناك النومي حلو، ولا نعتقد بانتشاره خارج العراق كثيراً. أما النارج ذو الثمرة قارصة الطعم، فهو البرتقال البري على ما يبدو، وقد دجنه سكان بلاد الرافدين ليحصلوا على شجرة البرتقال، ومن اسمه اشتق اسم البرتقال في اللغات الأخرى. وأزهار كل الحمضيات تسمى قَداحاً، والقَداح في المندائية قَداها.

ولا ننسى الخضروات التي لا تخلو مائدة عراقية منها منذ آلاف السنين. فهناك الكرفس (في المندائية كَرَفسا، من الإيرانية كَرَفَس)، والكُرَات (كراتيا، في الأكديّة كَراشو، والسومرية كاروش أو

گاروش)، والبربين purslane (پَرِپِين، وهو فرخ بالعربية وپَرِپِهين بالفارسية، وبالتلمودية پَرِپَحِينا)، والزعر أو الصعتر (صاترا، وتعني الأعشاب العطرية عموماً)، وهناك النباتات التي تؤكل أو التوابل: الشلغم أو اللفت (شَلْگَم، من الفارسية)، والسيسنبر water mint (سوسنبر)، والكمون (كمونا، من الأكدية: كمونو < العبرية كمون، اليوناني كومينون، اللاتيني cuminum)، والزعفران (زفرانا أو قرطما في المندائية)، وكذلك السمّاق (وكلمة سموق، سماق تعني في اللغات الآرامية اللون الأحمر إشارة إلى لون هذه المادة). ويسمى الخردل هاردلا (وهو في التلمودية حردلا وتلفظ خردلا).

ومن بين الفواكه المعروفة في المندائية (حسب القاموس) الجوز وهو أموزا، واللوز وهو شِگدا (في أكدية: شِقْدو، شِقْتو، شِقْدو مثل التلمودية، وفي العبرية شاقيد)، والعنب وهو أنبي أو أمبي، في حين الكرمة هي كفنا، وهي كلمة لا تزال تستعمل في لغات بلاد الشام حيث يقولون جفنة وجمعها جفئات، والبطيخ الأحمر أو الرقي الذي يسمى في المندائية قَرَمبا أو قَرَنبا أو هَبَهَب، وهو في اللهجة اليمينية ححب، الرمان الذي هو رُمانا، والتين وهو تينا (في الأكدية تينو)، علاوة على الحمضيات مارة الذكر. نلاحظ من بعض الأمثلة أن اللغة المندائية لا تستعمل حرفي العين والحاء، وهذا من تأثيرات اللغة الأكدية التي تفتقد هذين الحرفين هي الأخرى. وهذا دليل آخر على عراقية هذه الطائفة وأصلاتها وجذورها الرافدينية العميقة. أما باقي لغات بلاد الرافدين الآرامية فتستعمل هذين الحرفين (وعموماً تنطق الحاء خاءاً).

نختتم هذه الكلمة بتناول النخل، هذه الشجرة الرافدينية المباركة، لننظر إلى ما يتعلق بها بشكل أعمق. تسمى شجرة النخل عند المندائيين سِنْدِرْكا، (باليونانية σανδαράκη، باللاتينية sandaraca) وهي في الأصل شجرة مقدسة دائمة الخضرة. وترمز النخلة حسب الفكر الديني المندائي إلى الخصب الذكري، وتُقرن عادة بالعين، النبع (أينا) رمز الخصوبة الأنثوية. وانتشرت في شمال أفريقيا كلمة دِقْلا، بمعنى ثمر أو شجر التمر، النخل، وأصلها رافديني، وفي المندائية دِقْلا أو زِقْلا، ولعله مماثل لكلمة دجلة، أو قد يكون أسم هذا النهر العظيم اشتق منه. والخل الذي يصنع من تخمير التمور هو هَلّا بالمندائية (من الأكدية خَلو، تلمودية حلا). وكلمة تالة، أي فسيلة النخل، هي رافدينية قديمة بالطبع، وفي المندائية تالا، ولعلنا نعجب لو كان الأمر على غير هذا النحو، لإرتباط النخل والتمر بوادي الرافدين. ولا نشك في أن الكثير من المصطلحات المتعلقة بالنخيل مثل الخوص والكرب والجريد وأسماء أنواع التمور هي رافدينية أصلاً واحتفظ العراقيون بها حتى بعد الإسلام وانتشار اللغة العربية.

ثائر صالح